خطبة صلاة الجمعة 15/ 11/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(جهاد الدعوة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 45 - 48].

روى الإمام البخاري عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراةِ. فقال: أجل، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45]، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً».

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب 21].

أيها الإخوة:

بمناسبة دخول شهر ربيع الأول؛ شهرِ ولادة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ستكون خطبُ الربيعين حديثاً عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعرض لكم فيها مختارات من السيرة العطرة وأقطِف من دروسها ما نحتاجه ليومنا وغدنا؛ لنزداد له صلى الله عليه وسلم محبة، ولنجتهد به اقتداء ولنكثر عليه صلاة، صلوات ربي وسلامه عليه.

كان عنوان الخطبة الأولى: بدء الوحي، والثانية: بدء الدعوة. وعنوان خطبة اليوم: **جهاد الدعوة**.

أيها الإخوة:

استنبط بعض العلماء من قول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52] أن جهاد الدعوة هو الجهاد الكبير.

وكيف لا يكون جهاد الدعوة كبيراً وفيه تغيير لطباع النفس السَّبُعِيّة لتصير مطمئنة بالإيمان منشرحة بالخير؟! وكيف لا يكون جهاد الدعوة كبيراً وفيه نقل للناس من الجهل إلى العلم، ومن الظلم إلى العدل، ومن الفرقة إلى الجماعة، ومن سوء الأخلاق إلى حسنها، ومن الأثرة إلى الإيثار، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن عباد العباد إلى عبادة رب العباد؟!...كيف لا يكون جهاد الدعوة كبيراً وفيه صبر على أذى المؤذين، وحسد الحاسدين، وحقد الحاقدين، ووساوس الشياطين ؟!.

قال المفسرون في معنى ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي بالقرآن أو الإسلام، قال الزمخشري: (وجعله جهاداً كبيراً لما يُحْتَمَل فيه من المشاق العظام) قال البيضاوي: (هو كبير لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف) قال الزحيلي: (جهاد لا يخالطه فتور).

بعد سنوات من بدء الدعوة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالصدع بها فأنزل الله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94] ونزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214].

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، صعِد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**» - لبطون قريش - حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «**أرأيتَكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيّ؟**» قالوا: نعم، ما

جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: 1، 2].

وتابع رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عز وجل: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، قال: «**يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباسُ بنَ عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفيةُ عمةَ رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمةُ بنتَ محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا**».

ولم يزل صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدع في أرجاء مكة، يجهد في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان إلى آخر نفس من أنفاسه صلى الله عليه وسلم.

فقد روى الإمام أحمد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ حُضِرَ، وفي رواية: عند موته، جَعَلَ يَقُولُ: «**الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**» فَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ بِهَا، وَمَا يَكَادُ يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ.

وحمل الرسالةَ أصحابُه رضي الله عنهم معه وبعده.

وانفجرت مكةُ بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، تنافح عن عقيدتها الوثنية وتدافع عن تقاليدها وموروثاتها وتواجه دعوة الحق. فكان أن مشتْ إلى أبي طالب تدعوه إلى كف ابن أخيه عن أمره هذا، ولما لم يستجب لهم اتجهت قريش إلى السخرية بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتحقيرهم، ثم أثارت الشبهات على كلامه صلى الله عليه وسلم، وبثّتْ الدعايات الكاذبة عنه فحيناً تقول شاعر، وحيناً كاهن، وحيناً يأتيه رئي من الجن، وحيناً تقول إنما يعلمه بشر، وحيناً تعارض القرآن بأساطير الأولين، ثم لجأتْ إلى تعذيب أصحابه واضطهادهم، ثم حاولت مساومته على مال أو نساء أو منصب، ثم حاصرته في شعب أبي طالب ثلاثَ سنوات، وفي كل ذلك يتجنب رسول الله صلى الله عليه وسلم مقابلة السيئة بمثلها ويدعو أصحابَه إلى الصبر على الأذى والثبات على الحق والصفح الجميل، ويجتهد في نشر الدعوة وبث الخير بين الناس ولو كره الكافرون.

أيها الإخوة:

فيما سبق من حديث الجهر بالدعوة دروس وفوائد يحتاجها كل منا، وقد علمتني السيرة النبوية فيها أمرين

أولهما: كن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغ الدعوة.

ثانيهما: اثبت أمام المحن ولا تجزع.

أولاً: كن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغ الدعوة:

نقرأُ في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوّلها إلى آخرها كيف حملَ رسول الله صلى الله عليه وسلم همّ الدَّعوةِ إلى الله تعالى، ومسؤولية تبليغه الرِّسالة التي بُعِثَ بها إلى النَّاس، حتَّى خاطبَهُ ربُّهُ بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6]، أخرج ابنُ أبي حاتم في تفسيره أنَّ معناها: لعلك -يا محمَّدُ- من الحِرصِ على إيمانهم قاتلٌ نفسَكَ، ومخرِجٌ نفسَكَ من جسدك.

وخاطبه الله تعالى بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعراء:3]. وخاطبه بقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:8].

فتراه صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله تعالى في العسر واليسر، في الحرب والسِّلم، في الصَّحة والمرض، في اللَّيل والنَّهار، في أهله وعشيرته، في أسرته وعائلته، في القريبين والبعيدين، يحضرُ مواسم اجتماعِ النَّاس ويدعو النَّاس إلى الله، ويقول: «مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبلِّغَ كَلَامَ رَبِّي» (سيرة ابن كثير).

يقول للنَّاس: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» [البخاري]، ويقول لهم: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ» [البخاري].

إن اهتدى على يديه امرؤٌ فرحَ فرحاً شديداً، وإنْ أصرَّ امرؤٌ على عِنَاده للحقّ حزِنَ عليه حزناً شديداً.

أخرج البخاري عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ» فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ صلى الله عليه وسلم، فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ».

وهكذا تجدون رسولَ الله ﷺ يحملُ همَّ الرِّسالة أنْ يبلِّغَها الكبيرَ والصَّغيرَ، الرَّجلَ والمرأةَ، القريبَ والبعيدَ، وهو صلى الله عليه وسلم يخافُ التَّقصيرَ في أداء حق الرِّسالة، فيقول في خاتمة خطبة الوداع:

«أيُّها النَّاسُ، وَإِنَّكُمْ تُسْأَلُوْنَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُم قَائِلُوْن؟» قالوا: نشهدُ أنَّك قد بلغْتَ وأديتَ ونصحتَ، فقال بأصبُعِهِ السَّبابةَ يرفعُها إلى السَّماء، وينكبها إلى النَّاس: «اللهمَّ اشْهَدْ، اللهمَّ اشْهَدْ» [مسلم].

فهل حملْتَ أنت همَّ الدَّعوة إلى الله؟! وهل كنتَ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التبليغ، وهل شعرت بمسؤوليتك أمام الله عن الشاردين والتائهين والبعيدين والمقصرين؟! وهل ساندتَ العاملين في دلالة الخلْقِ على الحقّ؟!.

إذا لم تكنْ من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنُازِلَ الحربَ، فكُنْ من حُرَّاس الخيام، فإن لم تفعلْ، فكنْ من نظَّارةِ الحربِ الذين يتمنون الظَّفَرَ للمسلمين، ولا تكن الرَّابعة فتهلك.

ثقيلةٌ هي المهمّة التي أوكلتْ إليك، خُذْ بأيدي الغرقى في لُجّةِ هذا العالم، واصعدْ بهم إلى سماواتِ الفكر والإيمان والحياةِ الهانئة، وأشعلْ لهم من زيتِ قلبك المؤمن سراجَ الهداية، واعلمْ أنّكَ مؤتمنٌ على كلّ نفْسٍ في هذه الأرضِ أن تعطيَها حاجَتَها من الهداية والنّصيحة والمعاشرةِ الحسنة. فأنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغ الدعوة.

لا تُضِعْ لمحةً من العمرِ هدرا — وَارتفعْ عن كثافةِ الأرضِ قدرا

وَتقَدّسْ بحملِ همّ البرايا — وَاسألِ اللهَ فوقَ صبركَ صبرا

ثانياً: اثبت أمام المحن ولا تجزع:

ففي طريق الدعوة إلى الله لا بد أن يعترضك أبو جهل، ويسخرَ منك أبو لهب، ويحاولَ ثنيك عن خدمة الدين عقبة بن أبي مُعَيط، ويؤذيَك عتبة بن ربيعة، ويوسوسَ لك الشيطان وتحاولَ تثبيطَك نفسٌ أمارة بالسوء، فاعلم أن اقتحامَك هذه العقبات وتجاوزَك هذه المحن بابُك إلى الجنة، فقد حُفَّت الجنة بالمكاره وجُعِلَ طريقُها صعباً بربوة.

قال الشيخ محمد الغزالي المعاصر: (ولكن ما أبو لهب؟ وما قريش؟ وما الدنيا كلها؟ بإزاء رجل يحمل رسالة من الله الذي له ملك السموات والأرض، يريد أن يعيد بها الرَشَد لعالم فقد رُشْده، وأن يمحو بها الأوهام من حياة مرّغتها الأوهام في الرغام، ما تجدي وقفة جهول أو غضبة مغرور في منع هذه الرسالة الكبيرة من المضي إلى هدفها البعيد؟! إن الطحالب العائمة لا توقف السفن الماخرة).

وليتذكر الدعاة إلى الله أنّ نار المحن تنضِجُ العقيدةَ في القلب، وتحرقُ كلَّ العلائق من النفس، وتصحح النية، وتُشعِلِ الشوق إلى الله، وتذكي معاني العبوديةِ له جل جلاله بالضراعة والدعاء.

وهناك يحلو العملُ لخدمةِ الدين وترْخُص الروحُ للقرآن والسنة. فاثبت أمام المحن ولا تجزع.

وبعد أيها الإخوة:

هذا شيء من فوائد حديث الجهر بالدعوة، علمتنا السيرة النبوية من خلاله أن يكون أحدنا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله، فيبذلَ لها الغالي والرخيص لننشر الخير في هذه الأرض.

وعلمتنا السيرة النبوية أن يثبت أحدنا أمام المحن في هذا الطريق ولا يجزع.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب 56].

والحمد لله رب العالمين